بائع الجرائد

لسليم يوسف الخازن

عندما تردّد النوتي خوفاً من الامواج المتعالية وشكا الريح العاصفة خشية ان تقلب مركبه وتدفع به الى موت عاجل انتهره القيصر قائلاً : « أقلع ! فحمل مركبك القيصر » .

نطق القيصر يوليوس بهذه العبارة فنوّهت له التاريخ بالاعجاب وتناقلتها الالسن الى يومنا هذا لدلالتها على همة قائلها واقدامه وجرأته واصبحت مثلاً من الامثال .

العبارة بليغة لعلاقتها باحوال ذكرتها . اما فيما سوى ذلك فلا هي بمعناها ولا ببيناها مما يستحق التخليد فضلاً عن التناقل . ولو لم يكن قائلها القيصر العظيم لما ذُكرت ولنبذها القوم مبتسمين ابتسامة استخفاف واحتقار لما حوته من دلائل العجب والخيلاء . ولكن قضت الايام بان عظمة القائل كثيراً ما — ان لم اقل دائماً — تكسب قوله عظمة وتوشحها بوشاح جلال يستر كتفي صاحبه الى حدٍ قيل معه . كلام الملوك ملوك الكلام

وهي الاحوال تدفع الى الكلام فتخلع عليه من نوعها ما تحلمه

انما هنالك امر آخر يجب ان يكون الاول بالاعتبار ·

الكلام في حد ذاته صورة لفظية لما بطن يمكن تزويقه وتحليته فيكون رناناً موءثراً وله وقع في الاذان مستحب · اما العمد فهي في الدافع النفساني الذي حرك اللسان فعبر عن عاطفة في الصدر او مبدأ في النفس

في المثل · اللسان ترجمان القلب · وغني عن البيان ان الامثال كتبوه الشريعة · لا اغالي كثيراً اذا قلت انها اشبه بالمطاط يجذب فيتمدد ويتركك فيتذبذب · وبعبارة اخرى ان لتفسيرها دائماً وجهين

في وسع اللسان ان يزوق ويجمل ويحلي الكلام ولكن هل في وسعه ان يغش العقل والقلب ؟ وان غشهما فهل الى مدى طويل ؟

نسمع بخطيب ملسان او بكاتب ساحر خالب يأتيانك بالبطل في ثوب الحق فيسرقان لبك قبل سمعك · ولكن هل يدوم فعل هذا السحر ؟ وهلا تفقد رقاها اللفظية قوتها ؟

يذهب الدال ويبقى المدلول عليه اذا كان مما يستحق البقاء · يذهب اللفظ وتبقى العاطفة المدلول عليها به حية نامية مثمرة يستغلها المخلفة عن السلف ·

وهنالك سانحة اخرى · العظيم الرائع من العظيم يكبره ويعظمه الناس واما العظيم الرائع من الحقير الوضيع فقد يعجب به القوم الى حين ثم يتناسونه الا فيما ندر · هذه سنة وسوف تبقى الى ان يتعلم البشر انه اذا

زيد او بكر — ولعل ذلك الوقت قريب !

قل لي بعد هذا · ان العين او الاذن لا تقويان على غش القلب ·

عبارة القيصر تدل على همة عالية وجرأة واقدام · ولكن ألم ينطق بمثلها او بابلغ منها الوف الضباط الصغار حتى وبعض كبار الجند ايضاً ؟ ولكن التاريخ دوّن عبارة القيصر واهمل غيرها لان القيصر كان القيصر ·

كتبنا مشحونة بعبارات لا تدانى ان في بلاغتها او بفصاحتها باعتبار القرائن والاحوال · وفيها عشرات الوف الابيات · ولكنها وقع وتأثير في النفس مخصوص · اليك عنترة وحماسته وامرؤ القيس ووصفه وزهير وخبرته وابن ابي ربيعة ورقته وابن هاني وظرفه وابي العتاهية وابي تمام وابي الطيب والمطران وغيرهم كثير · اليك الامام علي وعمر واكثم بن صيفي وابن المقفع وعبد الحميد وغيرهم وغيرهم — نتناشد اقوال هولاء ونتمثل بها معجبين مقتبسين معتبرين · ولكن من منا او كم واحد من كل مائة منا يذكرون عبارة ذلك البدوي الايادي الخشن (؟) التي فاه بها في ظروف لم تكن للقيصر ؟

لا انت ولا انا نعرف حق المعرفة لفحات « رمضاء البادية » لا ولا شمسها التي تسكب حرارتها كالسيل على صدر الصحراء فتتحوّل رمالها الى جمر واذا ما تنفست فكمن فم أتون متأجج ··· لعاب الشيطان ! صدقوا وابيك وهذه احدى معجزات بلاغتهم ·

لا ! لا انت ولا انا نعرف حق العرفان الدرجة التي تبلغها الحرارة في

صحارى العربية فهل ترى نفقه درجة العذاب الذي يلقاه من قضي عليه بالعطش فيها ؟ حبذا لو كنت ثالثنا تسمع ما حدثنيه والدي عن اختباراته في صحراء الشام اذن لكنت تقيس وتتصور حالة قافلة تضرب في عرض الصحراء وقد قل ماؤها فاخذ القوم يتصافنونه لكل نصيب زهيد لايروي غلته وقد لا يبلل اللسان اللاصق في الحلق وذلك في اوقات معينة . يأتي وقت الاستقاء فيقف القوم حول القربة ويتناول كل نصيبه بدوره الى ان تبلغ آلة الشراب الى الايادي فيلفت نظره فيرى رفيقه السعدي ينظر اليه نظرة المستعطف فيردها ويقول . أسقِ اخاك السعدي ! فيشرب السعدي ويتزايد ظمأ الايادي .

يقولها المرة بعد الاخرى ويرتد عن الماء راضياً لا مكرهاً مدركاً الغاية التي يسير به اليها رضاه وايثاره الغير على نفسه يقولها وعيناه ناظرتان في عيني موت احمر يتأجج اللهب فيهما محدقتان في هاوية نارية كفوهة بركان تغلي فيها الحمم واي حمم . يقولها وهو مدرك انها لربما تكون آخر مرة يتمكن فيها من القول

أسقِ اخاك السعدي !

هذا ما قاله كعب بن مامة البدوي الايادي المحشن (؟) فاذكر الظروف ثم احكِ لي عن القيصر .

اذا كان شرف العاطفة والمبدأ مما يكسب الكلام وقعاً وتأثيراً . اذا

فهل في لغتنا من العبارات ما يليق ان يذكر بنفس واحد مع عبارة الايادي او حل فيها ما يجب ان يكون اوقع في النفس واشد اثارة لنخوتها واكثر تحريكاً للشريف من اسرارها وادل عَلَى المدى الذي يبلغه الانسان في اقترابه من الالهة — او الالوهية — من عبارة ذلك البدوي الايادي الخشن (؟)

ذكرت عبارة القيصر وعبارة الايادي عندما وقعت عيني عَلَى عبـارة نطق بها بائع جرائد وهو يحتضر .

قال — وكيف كانت الحال. فلقد خدمت العالم بحسنة .

بائع الجرائد هو ذاك الذي تراه عَلَى زاوية الشارع متأبطاً حزمة من صحف الاخبار يصيح في اذنيك معدداً اسماءها وتتفاً من اخبارها الهامة منبهاً اياك الى وجوب الاطلاع عَلَى ماجريات العالم هو ذاك الذي يعلم اي الناس في حاجـة الى جرائده من مجرد النظر في وجوههم هو ذاك الذي لا يكل له قدم ولا يبح له صوت وهو ذاك الذي تأتمنه عَلَى درهمك ليذهب ويصرفه اذا تعذر وجود الصرافة في جيبه فيراهنك رفيقك عَلَى عدم رجوعه بحقك ويلومك عَلَى سذاجتك فلا يعتم ان يرجع اليك ويكذب الرفيق . هو ذاك الذي قد يخيل لنا انه يبيع ولا يدري ما يبيع والذي نزعم ان ترقيه محصور في صوته وقدميه وان حد تهذيبه عبارة عن حل رموز الاحرف واما النفس منه والقلب فمتأخران ضعيفان قزمان .

هذا بائع الجرائد الواقف عَلَى زاوية الشـارع كما تراه — ولا نحن مخطئون في غالب الاحايين . ولكن كما ان الامانة تنمو في قلبه بواسطة

عامل غير الخوف من عقاب الشريعة للسارق فتأتمنه عَلَى درهمك — كذلك تنمو في صدره عواطف شريفة قليلاً ما تجدهـا في صدور كثيرين ممن يلقبون بالمهذّبين الراقين ·

بائع الجرائد الذي نحن بصدده ذوت احدى رجليه وهو في الثالثة من عمره فاحتملها يابسة يلفها احياناً عَلَى عكازه فتساعده عَلَى الثبات في وقفته واما فيما سوى ذلك فلم يكن له منها فائدة · قرأ صاحبنا يوماً في احدى الجرائد التي يبيعها انهم اتوا الى احد المستشفيات بفتاة لعبت النار في انوابها فحرقت جلدها في اماكن عديدة بحيث تعذّر عَلَى الاطباء معالجتها ان لم يجدوا جلداً آدمياً حياً يرقعون به جسد الفتاة حيث اكلته النار · ولما كان هذا غير متيسر فقد قضي عَلَى الفتاة بالموت

فلما قرأ صاحبنا هذا الخبر اسرع الى المستشفى وعرض عَلَى الاطبـاء المساعدة مقدماً جلد رجله حباً بالفتاة ·

الطبيب — ولكن اذا سلخنا الجلد وجب قطع الرجل

بائع الجرائد — وما عليّ اذا فعلتم ؟ قد ألف هذه الرجل عَلَى عكازي فتساعدني عَلَى الثبات اذا ما وقفت · فاذا قطعت استعضت عنها بعكاز آخر

الطبيب — ولكن قد تموت من جراء العملية الجراحية

بائع الجرائد — وقد احيى ايضاً · فالخطر والرجاء متساويان فلا بأس من التوكل والاقدام

واستعمل لمعالجة الفتاة ثم قطعت الرجل واقام الفتى والفتاة يستشفيان

اخذ فاضل من كتابنا عَلَى اقرانه طرقهم مواضيع تتعلق بفنون النفس ورغب اليهم معالجة ما يهم المجتمع مباشرة · مثل السياسة — مثلاً — والاجتماعيات وغيرها · وقد فهمت من كلامه انه يزعم ان البحث في الفنون النفسية من الكماليات وبالتالي تحسن معالجتها ولكن بعد الفراغ من الامور التي نراها ونلمسها · وعندي ان تلك هي الاساس وانها من الكماليات والضروريات في وقت واحد وان عَلَى هذا الاساس يتوقف ثبات البناء ومتانته فاذا ظهر عيب في الدور الاعلى من بناء ما فليبادر صاحبه الى الاساس

وقد خيل اليَّ ان الفاضل المذكور يرغب الى زملائه عدم التحول عن الوعظ والتقريع وطرق المواضيع عَلَى نحو ما اعتدناه من القديم — طريقة الواعظ والخطيب — والانصراف عن تغذية العواطف وانمائها بواسطة التلميح العرضي اللطيف ·

التكرار قد يعلم الحمار ولكن ابن آدم يحتاج الى طريقة غير هذه لان نفسه مثل جلده اذا اكثرت من تناوله بالعصا خدر ولم يعد يشعر بالالم وعليه فالوعظ والتأنيب لا ينفعاننا لكثرة ما سمعنا منهما · وعمدتي الاخصائيون في الفلسفة النفسية ·

السواد الاعظم من ارباب الطب الحديث متفقون عَلَى ان العمدة في استئصال المرض ليس باستعمال الادوية لكسر شوكته ونزعه من البنية عنوة

بل في تقوية البنية للانتصار عَلَى المرض بنفسها ومن نفسها · ومستندهم أولية هي ان في الجسم الصحيح خصائص لا يقوى المرض عليها فاذا ما عرض مرض كان ذلك دليلاً عَلَى ان في تلك الخصائص ضعفاً يجب ازالته لتقوى هي بدورها عَلَى المرض ·

وما يقال في الجسد يقال في النفس

وطريقة الذين يطرقون الفنون النفسية هي طريقة ارباب الطب الحديث — التلميح والحث والتلقين عرضاً في الظاهر ومباشرة في الحقيقة · وما غرضهم غير اصلاح الاساس ليصلح ما فوقه ويثبت

الوعظ والحض !

لنفرض ان خطيباً ناريا وقف في جمع واخذ في تحريك نفوسهم ودخول قلوبهم عنوة بما يفوه به وما يصوره لهم من حالة الفتاة الآنفة الذكر وآلامها وصباها وغضاضتها فلربما كانت تستفز الحمية احد سامعيه او بعضهم فيسمحون بسلخ بعض جلدهم · هم اذا فعلوا كانوا ليشكروا عَلَى عملهم ولكن اين هم من ذاك الذي اقدم عَلَى فقد رجله عالماً ان ذلك قد يقوده الى الموت عن روية وحسبان ولا من دافع غير همس النفس الشريفة خفياً في خلواتها ولا من حاث غير وحي القلب بوجوب الاحسان عن اقتناع · التحمس والحمية يشكران ولكن ما يفضلهما هو الاقتناع الثابت الرشيد · ذاك يأتي نوبات واما هذا فتراه دائماً عَلَى قدم الاستعداد · ولكي يبلغ الانسان هذه النتيجة يجب ان يدق اصبع عاقلته فيصل

واذ عدنا والتقينا ببائع الجرائد فلنعد الى خبره ·

شفيت الفتاة تماماً وقبل تركها المستشفى طلبت مقابلة مخلصها من الموت ·

اقتربت من سريره والدمع يترقرق في عينيها وقبلته ·

لم تنبس ببنت شفة بل قبلته باكية · واي كلام افصح من هاتيك الدموع وتلك القبلة — والسكوت منا لدن تلك القبلة عين البلاغة وافصح من النطق والوصف ·

وحضرت الشاب المنية فاخبره الطبيب بقرب الاجل فرفع بصره اليه وقال · كيف كانت الحال فلقد خدمت العالم بحسنة !

قال شاعر انكليزي ما فحواه · « كم من زهرة قضي عليها ان تنفتح وتتلوّن منزوية حيث لا تنالها عين ولا يبلغ اليها بصر »

صدق · وكم من نفس شريفة تنمو وتكبر حيث لا تراها العيون · وكم من عاطفة تتفتح وتتلوّن ولا تجد لها منفذاً لتعطر بعبيرها الاقطار وكم من حسنة اذا ظهرت الى الوجود اخفاها عن عيون الناس حقارة صاحبها ووضاعة مقامه ·

وكيف كانت الحال فلقد خدمت العالم بحسنة !

هذا ما قاله ذلك الشاب الكبير النفس وهو يحتضر فهل من عبارة تفضل هذه فتنقش عَلَى ضريحه وهل من صيب اكثر صفاء ونقاء من دمعة تسكبها تلك الفتاة عَلَى حجر ذلك القبر !